نظرات في النفس والحياة

— ٤ —

من نظرات تشسترفيلد

فيليب دورمر ستانهوب لورد تشسترفيلد من نبلاء الانجليز . وأهم مؤلفاته رسائله الى ابنه وقد ضمنها نصائحه التي اكتسبها من خبرته في مخالطة الناس فقد شغل مناصب مختلفة وعاشر أناساً كثيرين من طبقات مختلفة إذ كان أولاً عضواً في مجلس النواب ثم في مجلس اللوردات ثم سفيراً في هولاندة ثم حاكماً لارلندة ثم وزيراً . ورسائله ذخر مملوء خبرة بالنفوس وكنز من تجارب الحياة . وقد أسرف الدكتور صمويل جونسون الأديب الانجليزي في ذمها ولكنه اعترف في ثنايا ذمه بما فيها من فطنة وخبرة إذ قال لو صح منها ما لا يجمل التخلق به لصلحت كي يقرأها كل فتى، وأوجه الاختلاف بينهما كثيرة منها ان جونسون كان يذم الرسائل في الأخلاق النظرية ويحتذي ما درسه في الكتب، وتشسترفيلد كان يسترسل في وصف النفوس كما خبرها بأسلوب سهل موجز حتى عُدَّ آية في بلاغة الايجاز. ومنها أن جونسون في أيام فقره تطلّع الى أن يمده النبيل الغني بمعونة تعينه على نشر مُصَنَّفاته، فلم يفعل اللورد أو أنه تباطأ أو أهمل مدة فأرسل اليه الدكتور جونسون رسالته التي كانت كصوت برق يؤذن بعصر جديد وباعتماد الأدباء على كسبهم بدل الاعتماد على معونة النبلاء . ومؤرخو الأدب يقولون ان إبن تشسترفيلد الذي كتبت له الرسائل لم ينتفع بها انتفاعاً كبيراً ولم يفده ذكاء ولا خبرة . ولا غرابة فالكتب لا تخلق عقلاً ولا تنشىء ذكاء غير موجود وانما تُصقّل وتربي ما هو موجود ، والخبرة قلما تفيد إلاّ إذا طلبها المرء بنفسه . وكثير من الناس يعالجون التجارب ولا ينتفعون بها فكيف بها اذا كانت تلقيناً وقولاً يقوله غيرهم ، وإنما يكون نفع التجارب اذا صادفت النفوس توفيقاً واستعداداً . وكل ما يقال في ابن تشسترفيلد انه لم يُظْهِر فضلاً كبيراً ولا نقصاً خطيراً ، وانما كان من غمار الناس . وأمل المؤرخ الذي كان يأمل نبوغه بسبب الرسائل، انما هو نوع من الاعتراف بكياستها وفطنتها

وقد أوردت تتمةً على سبيل الاعتبار منها ، والتفكير فيها ، لا على سبيل الترجمة الحرفية . وربما أدمجت بعضها في بعض : —

(١) بعض الناس يمدح نفسه بصيغة الذم فيكبر الفضائل لباس النقيصة والعيب ثم ينتقص نفسه بتلك الفضائل ويعيبها بتلك المحامد التي كساها كساء العيب كي يجعل مدح نفسه مقبولاً لدى الناس . فتقول مثلاً : من عيوبي التي لا أستطيع ان أغالبها اني أغار الحق في غير موضعه ، وآبى بالصدق في غير مكانه . . . أو يقول : من عيوبي اني ما رأيت إنساناً مُصاباً إلاّ وددت أن أشاركه في مصابه ، كأني أحمل الدنيا أو كأني موكل بها . ولا أزال بي تلك العادة حتى أقاسمه المصاب وأعاطره وأعينه على ما حل به وأهيء له من أمره ترفيهاً ورمداً . . . أو يقول : من نقائصي المذمومة اني كلما رأيت مظلوماً نصرته ، وإن كان في نصره ضرر لي ومن مقاتلي التي لا أستطيع الخلاص منها أني كلما رأيت ضعيفاً أعنته على أمره . . . والعاقل حقيق بالإعراض عن هذه الوسيلة التي توهمه إنها تحمل الناس على اعتبارهم له مدح نفسه ، إذ هي لا تحملهم على الاعتبار بل تزيد الناس سخرية به وإزراء عليه — ومن الناس من يتخذ لنفسه شعاراً في أمر من الأمور ويوهم الناس أنه وحده كفيل به لا شريك له ويردده في كل فرصة حتى يمل الناس أمره ولا تنفعه طلاقته ولا أنه ذرب اللسان ذلق ، والناس امتحان في هذه الأساليب المتعارفة . وفي الحالتين المذكورتين ، المدح المراد لنفسه مدح لم يقصده صاحبه إلاّ بطريقة ملتوية ولكنها حيلة مكشوفة .

(٢) اذا أكثر رجل من القسم ولجّ في الحلف كي يحملك على أن تصدقه وكي يقنعك بحلفه في أمر لا يستدعي تصديقه كل هذا الحلف فهو في أكثر الأحايين كاذب فيما يقول وإلاّ ما تكلّف جهد الحلف كي يحقق به كذبه ، وكي يداوي فكه في تصديقك كلامه ، وكي يعالج خوفه من رفضك قوله — وهذا يذكرني قصة رجل من أهل المدينة كان يقول للناس : أنا والله من مُرَيْسٍ والحمد لله . فقال له سامع : الحلف والتحميد هنا أمران مُريبان . أي يدعوان الى الشك والريبة في صدقه . على أن الرجل قد يكون صادقاً في كلته وإنما يعالج بالحلف اشتهاره لدى نفسه ولدى الناس بالكذب في أمور أخرى غيرها . وقد يكون الحلف عادة عوّدها ولكنها توقعه موقف الرجل الظنين المتهم في صدقه .

(٣) كثيرٌ من الناس يكرهون أن يُشتهروا بالخيانة أو الضباء أو السخف ، أو الحقارة ، أو ما شاكل ذلك من أوجه النقص والعيب أكثر من كرههم أن يتهموا بالآثام والخطايا

والجرائم والشر — ولكن قما يقطن المباشر الى سبب هذا التفضيل ووجوبه إذ أن الرجل يكره ما يلحق به الاحتقار أكثر من كرهه ما يلحق به خوف الناس منه، وهو يعرف أن الناس قد يعجبون بالشر والخطايا ويزيد صاحبها عظماً وقدراً في نفوسهم ويتفخرون بها. ولكن الناس لا يستعظمون السخف، ولا يجلون الحماقة والغباء، ولا يفخرون بهذه الصفات التي تزيد صاحبها احتقاراً في نظرهم فلا يستهين العاقل بنسبتها الى الناس اعتماداً على أنه لم يجعلهم من الأشرار ولم يقل إنهم من المجرمين فقد نسب إليهم ما هو أقبح في نظرهم وأكثر مجلبة للذم. على أنك قد ترى ساذجاً ينسبها الى صديق، فاذا غضب صديقه دهش وقال من غير تعمد للسخرية أنا لم أقل إنه مجرم شرير ولم أقل إلا أنه سخيف !!

(٤) كل إنسان يفضل أن يمدحه مادح بالصفة التي يدعيها لنفسه، وليست فيه أو ليست غالبة عليه، على أن يمدحه بالصفات الممدوحة التي يُقِرُّ له بها الناس ويعترفون بفضله فيها. لأنه في الحالة الاولى يكسب مجدة جديدة ولا يكسب شيئاً في الحالة الثانية إلا اعتراف بعض الناس بما لا يشك فيه أكثر الناس ولا يمارون. وهذا يذكرنا أن الكاردينال ريشليو السياسي الشهير ما كان يبتهج اذا مدحه مادح بحنكته السياسية وخبرته وبراعته وانما كان يسره أن يمدحه مادح بإجادة فن من الفنون الجميلة لم يجده ولا يرع فيه ولا أتقنه. وهكذا أكثر الناس كأنهم ما سمعوا قول الامام علي رضي الله عنه (قيمة كل امرىء ما يحسن).

(٥) مهد لنفسك منفذاً الى عقول الناس من طريق قلوبهم وما تشتهي نفوسهم فان عقول أكثر الناس وعرة مسلك ملتوية، وعندي ان هذه النصيحة تنفع أيضاً مع من كان الطريق الى عقله موطأً سهلاً ممهداً فاذا لجأت اليه من طريق قلبه وجدت عقله ازداد سهولة وصار أخف مؤونة وقد لا يخلفك طريق قلوبهم الا البطالة والملاينة وطيب الذكر وحسن القول.

(٦) كما أن النقود الصغيرة من العملة القليلة القيمة لا غنى عنها في معاملات الناس اليومية الصغيرة، فنقود الفكر والفظ القليلة القيمة لا غنى عنها في مجالس الناس وعاداتهم ومفاكهاتهم. ومن أراد أن يستبعدها وان لا يتعامل معهم في أمثال تلك المجالس الا بالفكر العويص والرأي العميق والفلسفة البعيدة والألفاظ الفخمة والتقعر في الكلام كان مثله مثل الرجل الذي لا يريد أن يتعامل في المعاملات اليومية الصغيرة الا بقضبان الذهب النقيلة الكبيرة فتمتنع المعاملة. وهذا يذكرني قصة رجل كان له ابن هذه صفاته وكان الرجل في مرض الموت وأبى أن يرى ابنه الا اذا ترك هذه الصفات فوجد ابنه بتركها في زيارته

لأبيه ولكنه لم يستطع مغالبة طبعه فكان الموت أحب الى أبيه من زيارته

(٧) بعض الناس مولعون بالأحكام العامة والجمل المألوفة والأمثال السائرة يرددونها كلما أتيحت لهم فرصة ويرهمون أنفسهم أنها تنطبق في كل حالة . والعاقل من تجنب الأحكام العامة والجمل المألوفة فليست حالة الا وفيها اختلاف قل أو كثر عما يشابهها من الحالات. وكذلك الأمم والطوائف والجماعات تختلف آحادها فليس من الصواب أن يحكم المرء على أمة أو طائفة أو جماعة من الناس حكماً عاماً — وكثرة التغادق بالأمثال والجمل المألوفة التي صارت مسير الأمثال لا يلجأ اليها إلا من لا يميز دقائق الفكر . وبعض الناس لا ينتهي من مثل الا بدأ مثلاً آخر أو حكمة معروفة ، كأنه آلة الحاكي تردد من غير تمييز .

(٨) من العلم ما يكسب صاحبه رجاحة في عيون الناس وتقويمهم ومنه ما يكسبه زينة ، والأول لا غنى عنه ، ولكن ينبغي أن يذكر العاقل أن كثيراً من الناس لا يستطيعون وزن الأمور ومعرفة رجاحتها وانما يحكمون بما هو دونن يرونه — وإذا كان حكم الناس بالظن أكثر من حكمهم بالفكر ، فقلما يصيب أحد النجاح الا اذا كان له نصيب من النوع الثاني من العلم .

(٩) ان المكارم الكبيرة والنعم السابغة قد يصنعها المرء يسخو ويبذلها بخرق ويهجم بها على من يجود عليه مخطئاً أو طايش وحماقة فتسيء مكارمه وتحمله الى من يصطنعها عنده فتصير أسوأ من الاساءة إليه اذا جاءت بالطف بتلم حدها ويقل غربها ويقلل ألمها . فرب نعمة قد تجلب عدواً ، وإساءة قد لا تثير صديقاً .

(١٠) المداكمة في الأمور الصغيرة من علامات سخولة النفس وكثيراً ما تكون مصحوبة بالشعور بالنقص يداويه صاحبه بمشاكسة أو مهارة أو مغاضبة ، فتكون أظهر لتتمه عند من درس طبائع النفوس

(١١) من أسباب النجاح الصبر على مضض الحديث الذي المُمِلّ ، أو على سماع رشرشات الرجل الشاكس أو المُلِحّ ، وهو إصغاء لا يلزمك عملاً تفعله — أو خفة ترمتها وتثقلها وتنفذها — وقد تجد فيثاً من النكاهة اذا عوّدت نفسك هذا الصبر وقد تجمع الى النكاهة فائدة أخرى وهي دراسة نفس محدثك وفي دراسة النفوس لذة بالرغم من ألم ذلك الصبر ومضضه وبعض من اشتهر باللباقة من الساسة ، وبالحنكة فيها ، أكثر بضاعتهم الاصغاء لا بتسام

(١٢) اذا هششت للناس وبششت وسهلت ظن من يخصب الحبائل للناس ويدبر الوسائل لاقتناص الكسب منهم إنك لست من يَنْصِب الشرك أو الشباك فلا يُبعِدُ لك عدة، ولا يتخذ لك أهبة، ولا يلجأ الى الحذر معك، كما أن ذوي السذاجة يركنون الى طيب قلبك، ويستنيمون الى سلامة طَوِيّتك فتربح في الحالتين

(١٣) الأغرار من الشبان ومن لم ينتفع بتجاربه من الرجال يرون أنهم يكسبون بالعنف والشدة في كل معاملة أو معاشرة أكثر مما يكسبون بدهاء الخبرة ولباقتها وتأنيها في معالجة الأمور، ويعدون كل هذه الصفات ضعفاً وعجزاً وجبناً ورياء، وإنها صفات لا تليق وهم في عنفهم وشدتهم يَدّعون لأنفسهم الحكمة كما يدّعي السكران بأنه غير مخمور — وقد يكون ادعاؤه مضحكاً يدل على انه سكران، وإن أنكر ذلك إذ يترنّح ويتلعثم ويتلطلج ويخلط ولا يبين في كلامه ويتكلف الاتزان ويتغاضب تارةً ويعاتب تارة وهذا أيضاً فأن الاغرار الذين ليس لهم إلاّ سبيل العنف

(١٤) اذا كان لك فضل فليس السبيل الى اعتراف العقلاء المبصرين والدهاة ولا الى اعترافه من يضطر الناس حق فضلهم وهم كثيرون، أن تكيد الناس بمباهاتهم به في الأحاديث والمجالس وبأن تظهر لهم أنك تعرف من فضلك أكثر مما يعرفون، فان الناس قلما يعترفون لك ذلك ويعدون فضلك إساءة اليهم وإنْ اعترفوا به سرّاً أو جهراً . وهم يحاولون انتزاع اليقين والثقة به من نفسك بأساليب مختلفة، ولكنك قد تحملهم بالملاطفة وسياسة التأني وأساليبها على اعتبار الفضل لك — وكذلك اذا كان لك فضل على إنسان بأن صفحت عن ذنب له أو إساءة أو زلة أو إذا كنت قد انتشلته من وهدة سقطة كاد يتردى فيها وأزرت به، فليكن همك أن تنسيه فضلك عليه واطلاعك على سيئاته ومواضع النقص منه . فان كثيراً من الناس يحقدون على من اطلع على زلاتهم ونقائصهم وان كان اطلاعه عليها من ناحية انتشاله اياهم من وهدة زلتهم ومعونته لهم وانقاذهم من عواقبها، فان تلك المعونة وذلك الانقاذ لا يدفعان لاغتفارهم اطلاعك على نقصهم . وفضلك في ذلك لا ينفع لك بل يزيد حزازة حقد من تفضلت عليه الاّ اذا كانت لك لباقة تنسيه فضلك عليه واطلاعك على نقصه، وقد يكون مثلهم مثل المرأة التي لطمت سائق الترام الذي رآها قد زلت قدمها وكادت تسقط تحت الترام فجذبها الى نفسه وانقذها من الموت .

(١٥) الناس قلما يغتفرون ذنب من إذا شرعوا يحدثونه أسرع الى اظهار معرفته الحديث. وبعض الاغرار ومن لم ينتفع بتجاربه لهم ولع عجيب بهذا التسرع الى اظهار معرفتهم حديث

المحدث — كأنهم يخشون ان يحسب الناس انهم قد فاتهم شيء من أمور العلم والدنيا لم يدركوه ولم يطلعوا عليه قبل حديث المحدث وهو اطلاع لا يزيدهم فضلاً بل نقصاً في نفس المحدث الذي لا يهمه أن يزن قدر علم من سبقه واستلب حديثه وانما يهمه أن لا يسلب منه جليسه كرامة نفسه وان لا يشعره الاستخذاء

(١٦) ينبغي للعاقل أن لا يظهر الامتعاض والغضب إذا ظهر عليه انسان بالحجة أو بذَّه فأوأ وهأنا أو مزح معه مزحاً مستكرهاً . بل الكرامة والربح في أن يكظم غيظه وأن يسري عن نفسه وان ينظر الى هذه الأمور كأنه يشاهد مشهداً في عالم آخر من غير تصنع للكبر المضحك المغالى فيه والذي يجعله كالممثل الطازل ومن غير هجار أو مهارة لأنه بهما يضيع كرامته ، ومن غير أن يأذن لفكره وذاكرته في معاودة هذه الأمور فيتعب ، ومن غير أن يلجأ الى التعريض في ثنايا كلامه بالسخر المعمى أو الواضح . وهذه أمور قد تسبب عداوات وثارات قد يشترك فيها أصدقاء خصمك وأقاربه ، فكأنك أثرت حول نفسك النحل من خليته وأقل ما في هذه الأمور من الضرر اذا لم يتخذ خطة متسعة النواحي لاغتيابك أن يأذن ويبتسم صامتاً لمن يغتابك كما قال الشاعر .

فسامع القدم مقرّ به وقابل الغيبة كالقائل

(١٧) كثير من الناس لا يميزون بين التسامح والتسهل في المعاشرة وبين التملق والنفاق فيأبون التسامح ويرفضون التسهل ويضحون بحسن المودة وطيب العشرة بأن يراجعوا كل انسان فيما يصف به نفسه أو ينسبه اليها أو يغلطوه أو يكذبوه أو يكثروا من مخالفته مع ان بعض الناس يَعُدُّ القليل من مخالفته تكذيباً — ويفعل المغلّط المراجع المقاطع ذلك بدعوى نصرة الحق والانصراف عن التملق والنفاق ، وإنما يفعل ذلك خشية ان يظهر إنسان بفضل يدعيه أو رأي يرتئيه أو حجة يدلي بها وتوهم المغلط المقاطع نفسه إنه إذا لم يفعل ذلك أضاع كرامته ولم ينصر الحق وأعان على الباطل بسكوته وكأنما تهد الأرض وتسقط السماء اذا لم يفعل ذلك فلا يميز الكبائر من الصغائر وإنما يكون المسائل الذي يحارب ما تخلل به أمور الناس لا ما يتسهل ويتسامح فيه المشير في العشرة .

(١٨) أحسن ما تكون الفضيلة إذا أرادها المرء كما يريد نظافة جسمه الراحة والصحة

والعافية لا للمباهاة ، وكما ان المرء لا يطلع الناس على نظافته ولا يلفتهم اليها ولا يحدثهم بها ، كذلك الحازم العاقل لا يحدث الناس عن فضيلته .

(١٩) في أكثر الأحايين اذا قال الانسان قولة جرح بريئة جرّ اليها حديث تحدثه وكانت صلتها بالحديث أو بانسان مذكور فيه تفسرها فانها تنقل الى انسان آخر له صلة أيضاً بالحديث مبتورة ويخفي ناقلها صلتها بحديثه فتخرج عن معناها وتصير إهانة ، ولو ان ناقلها ذكر حديثه وصلته به ما كانت اهانة . فيحسن تجنب المزح البريء اعتماداً على صدق الناقل إذ كيف تكفل صدقه ؟

(٢٠) الحازم لا يشارك المغتاب بالكلام ولا يشاركه بالاصغاء والسكوت فقابل الغيبة كقائلها وإنما يجمل ان يقول انه لا يعرف من أمر الغيبة شيئاً وهو اذا لج في انكارها جنى فوائد منها ان الناس تبرئه من الغيبة وتعده غير متتبع أخبارهم فيقل حذرهم منه ، وكلما أمعن في اظهار الجهل والانكار أكثروا من تعريفه ما يدعون معرفته من أخبار غيرهم ، إذ ان الناس مشهورون بادعاء معرفة أخبار الناس وأسرارهم وكلما قلت معرفتهم زادت تهمتهم باطلاع معاشريهم على ما يدعون معرفته ، ومنهم من يستطيل بادعاء صداقة الناس بالباطل كي يستطيل بادعاء معرفة أخبارهم وأسرارهم بالباطل أيضاً .

(٢١) في الناس أصناف يجمل ان لا يشركهم العاقل في خاصّة شؤونه ، ولا أن يطلعهم على بواطن أمره وأخباره وأسراره . ومن هؤلاء الغرير الجاهل فانه يذيعها كي يشرف أنه عالم بالناس ، والخائن كي يوهم الأغرار ان غيرهم قد ائتمنه ، والماكر الداهية كي يفيد من اذاعته ما يستطيع ، والخبيث إذ أنه يحولها مادة صالحة للأذى يؤذي بها من أشركه في أمره ، والزميل الذي ربما جعلته الحياة منافساً فيتخذ منها مادة لمنافسة زميله وتنقصه كي يفوز في موضوع المنافسة بدلاً منه . والمنافس مهما كان شهماً ذا مروءة لا يؤتمن على سر أو خبر أو شأن خاص ، إذ ان المنافسة قد تحمل الناس على الانصراف عن سبيل المروءة حتى يفوزوا في المنافسة ، ثم يعودون الى مروءتهم وشهامتهم بعدها .

ع . ش